

النفس

بين نداء الرحمن وإغواء الشيطان



أب. عبد الله بن عبد الرحمن

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م
الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

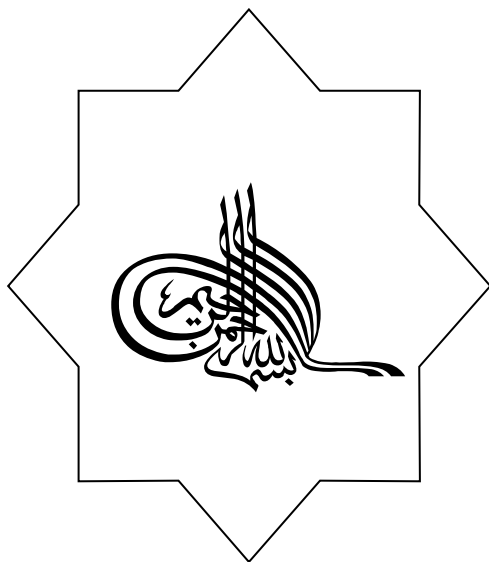
طبعة مزيّدة ومنقّحة



شركة مطابع السودان للعمل المحدودة

**النفس
بين
نداء الرَّحْمَن وإغواء الشيطان**

تأليف
د. عبد الله الزبير عبد الرحمن



مدخل^{۲۹} وتمهید^{۳۰}

إن سائر أمراض وعلل التدين إنما تنشأ من جانب النفس ، إذ المواد الفاسدة كلها إليها تنصبّ ثم تنبعث منها إلى الأعضاء .
فالنفس البشرية في غالبيتها شرور، وقلما تنال منها السرور ..

ولذلك كان النبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يستعيز بالرب تبارك وتعالى من شرورها فيقول: (وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا)^(١).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الترمذي من حديث حصين بن عبيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : (يَا حُصَيْنُ ! كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ - إِهْأ ؟) . قَالَ : سَبْعَةً ، سِتَّةً فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ . قَالَ : (فَأَيُّهُمْ تَعْبُدُ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ ؟) قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ . قَالَ : (يَا حُصَيْنُ ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ) قَالَ : فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنُ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! عَلَّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي . فَقَالَ : (قُلِ اللَّهُمَّ أَهْمْنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ

(١) من حديث خطبة الحاجة ، أخرجه الترمذي في كتاب النكاح باب ما جاء في خطبة النكاح ، حديث رقم ١١٠٧ ، والنسائي في الجمعة برقم ١٤٠٤ ، وأبو داود في الصلاة ١٠٩٧ ، وفي النكاح برقم ٢١١٨ ، وابن ماجه في النكاح برقم ١٨٩٢ ، وأحمد في مسند بني هاشم برقم ٢٧٤٤ ، والدارمي في النكاح برقم ٢٢٠٢ . وصححه الترمذي .

وساقت إليه الإثم والعار الذي

دعته إليه من حلاوة عاجل

وقسم ظفروا بنفوسهم، فقهروها، وتغلبوا عليها، وأمسكوا بأزمتهـا
وقيادها فمنعوها عن أطماعها الدنيئة، وكفوها عن شهواتها الخسيسة، فصارت
طوعاً لهم، منقادة لأوامرهم . فلا شك أنهم نجوا من الشقاء والهلاك .

قال بعض العارفين ^(١): « انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن

ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا

مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴿٢﴾ .

والنفس نفسان :

نفسُ أسلمت ناصيتها للشيطان وأبت أن تسلك طريق التدسية ..

ونفسٌ اعتصمت بحبال الرحمن فاحتمت بالمحجة البيضاء وسلكت طريق
التركية .

فالنفس الأولى هي النفس الشيطانية والنفس الثانية هي النفس الرحمانية

ومن أفلحت منها فقد عُرِفَتْ قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١ وَقَدْ حَآبَ مَنْ

(١) انظر: اغاثة اللفهان: ج ١ ص ٦٠ ت ٦١.

(٢) سورة النازعات: ٣٧-٤١ .

الفصل الأول

صفات النفس الرحمة نية

الصفة الأولى

أَنْهَا نَفْسٌ مَطْمَئِنَّةٌ

فالنفس الرحمانية من أولى صفاتها أنها مطمئنة .

مطمئنة:

- لأنها سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتقت إلى لقاءه، وأنست بقربه، فبذلك مطمئنة .

۱۰- اطمأنّت إلى محبته تعالى وعبوديته وذكره ..

- واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره ..

- واطمأنت إلى لقاءه ووعدته ..

- واطمأنت إلى التصديق به وبأسمائِه وصفاته ..

- واطمأنت إلى قضائه وقدره ..

— واطمأنّت إلى الرضى به ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا وَنَبِيًّا ..^(١).

لذلك: أصحاب هذه النفس المطمئنة تنزل عليهم ملائكة الرحمن من

حملة البشارات ، يجلسون على رؤوسهم عند الوفاة، وقد زفوا إليهم بشارة ربهم

(١) راجع: اغاثة اللفهان: ج ١ ص ٦٢.

وكابد أهواءها وأطاعها، فأقنعها بالتخلي عن أنانيتها والتزهد عن أثرها ، وأراها بأنها ليست بأولى من غيرها بالعطف أو الرحمة أو الرعاية .

أصحابها هم الذين غلا الإيمان بالله في قلوبهم ، فرخص كل شيء يُبذل في سبيل مرضاته - بلغ ما بلغ - ، وهان كل شيء يوصل إلى الفوز برضوانه - بلغ ما بلغ - ولو كان ذلك نفوسهم التي بين جنوبهم .

قال حذيفة العدويُّ رَحِمَهُ اللهُ: « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ،
ومعي شيء من ماء ، وأنا أقول : إن كان به رمقٌ سقيته ، ومسحت به وجهه ،
فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؟ فأشار إليَّ أن نعم ، فإذا رجلٌ يقول : آه ..
فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت :
أسقيك ؟ فسمع به آخر ، فقال : آه . فأشار هشام إليَّ أن انطلق به إليه ، فجئته
فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي
فإذا هو قد مات » ^(١).

❖ أيُّ نفسٍ أعظمُ إثارةً من هذه النفوسِ؟؟..

❖ وَأَيُّ بَشَرٍ كَانُوا أَصْحَابَ هَذِهِ النُّفُوسِ ؟؟ ..

❖ فهل هناك إيثارٌ أبْلغ من هذا الإيثار؟؟..

❖ أم هل هناك حبٌّ في الله أقوى من هذا الحبِّ؟؟..

❖ أم هل هناك إيمان أغلا وأعلا وأصدق من هذا الإيمان؟؟..

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج ١٨ ص ٢٨، وإحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٣٢١.

الصفة الرابعة

أنها نفس واعظة

تكون لصاحبها واعظة منبهة مراقبة. فإن مشى إلى خير حثته وإن انهمك في شرّ ردّته وإن سار إلى الحق حفزته وإن حار في الباطل نفرته تقول له: ماذا أردت تعمل ؟ ماذا أردت تقول ؟ ماذا أردت تأكل ؟ ماذا أردت تشرب ؟ ماذا أردت بكلمتك ؟ ماذا أردت بأكلتك ؟ .

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: « إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعْظُ مِنْ نَفْسِهِ » وهو معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢٠١) ..

أي مبصرون من أنفسهم بأنفسهم، فيرون الحق ويعرفونه فيولون الشرّ
والباطل والأثم أدبارهم ويفرون إلى الله إذ وعظتهم أنفسهم، ونبهتهم إلى
الصواب، وأرشدهم إلى طريق النجاة والفلاح، وأبعدتهم عن العصيان
ومسالك الشيطان، تذكّروهم بالله وتنذروهم منه تقول لهم مقالة المرسلين

المبشرين المنذرين: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ^ط إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٠).

(١) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٢) سورة الذريات : ٥٠ .

واطمأن بها.

أما أصحاب النفس الرحمانية؛ فما نسوا أنفسهم طرفة عين بعون الله
وكرمه ورحمته، فقدّموا لها الخيرات والحسنات . ومانسوا الله بل ظنوا أنهم
ملاقوه فاستعدوا للقاءه، وعلموا أنه غداً النفس نفسان : رابحة وخاسرة،
فربحت نفوسهم تقول يومئذ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّ﴾ (٢٠) . حيث
تقول النفس الخاسرة: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّ﴾ (٢٦) . (١٦)

أصحاب النفس النازرة إلى الغد همهم آخرتهم، وغايتهم رضا ربهم يوم يلقونه، وهدفهم بلوغ المنى الإيماني يوم الجزاء الأكبر، ببلوغ النعيم المقيم.

ولذلك لا يكثر ثكثيراً بدنياه وما وجد فيها وما نال منها، يرى أنه إنما يكفيه من الدنيا: مصحف شريف، وبيت بسيط لطيف، ومتاع خفيف، وثوب نظيف، وكوب ماءٍ ورغيف..

النعيم كل النعيم عنده:

رغيف خبز يابسٍ يأكله في زاوية
وكوز ماءٍ بارد يشربه من صافية
وغرفة خالية النفس فيها راضية
ومصحف يقرأه مستنداً لساريه

(١) سورة الحاقة : ٢٠ .

(٢) سورة الحاقة : ٢٦ .

والتلون، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتتقي»^(١).

ويقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: « واللّوامة نوعان : لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة، اللّوامة الملومة : هي النفس الجاهلة، الظالمة، التي يلومها الله وملائكته . واللّوامة غير الملومة : هي التي لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله - مع بذله جهده - فهذه غير ملومة. وأشرف النفوس؛ من لامت نفسها من طاعة الله، واحتملت ملام اللّوام في مرضاته، فلاتأخذها في الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله . وأما من رضيت بأعمالها، ولم تلم نفسها، ولم تحتمل في الله ملام اللّوام؛ فهي التي يلومها الله عزّ وجلّ » (٢١).

وأكثر الصوفية على أن النفس اللّوامة فوق الأمانة بالسوء وتحت المطمئنة، وعرفوا النفس اللّوامة بأنها : « هي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبّهت عن سنة الغفلة، فكلما صدر عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها » (٣).

فهذه أظهر صفات النفس الرحمانية، تتطلب المسلم أن يتزَيَّن بها، ويتحلَّى
بقلادها مادام حيًّا ..

(۱) انظر: تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف: ص ۷۲.

(٢) المرجع السابق نفسه : ص ٧٢-٧٣ .

(٣) انظر تفسير روح المعاني: ج ٢٩ ص ١٧٢ .

الفصل الثاني

صفات النفس الشيطانية

الصفة الأولى

أَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

النفس الأُمارة بالسوء نفسٌ تنزع من الشرِّ كل غاية. تنغمس بصاحبها في مستنقع الفجور، وآسِنات الشرور، وبرِّك النفاق والشقاق وسوء الأخلاق.

أُمارة بالسوء لأنها تأمر صاحبها بالسوء والفاحشة والمنكر، تعبِّد له طريق العصيان، وتزيِّن له الإثم والبغي والعدوان .

أصحاب هذه النفس تحملهم الأهواء المائلة فتتوهم بهم في عوالم الشهوات الزائلة، فتراهم يلهثون وراء اللذات العاجلة تؤزّهم إليها أنفسهم أزّاً، وتأمّرمهم باقتراف المعاصي فلا تمتعّط ولا تجبّه ولا تردّد ولا تأفّف، بل الإذعان والاندفاع والإصرار والترصد والمتابعة، ثم السرور بحال السوء - نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين الغافلين.

هذه النفس كما قالوا في تعريفها : « هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمّر بالذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية » ^(١).

هذه النفس هي التي أمرت امرأت العزيز لتراد فتاها نبي الله الصديق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن نفسه، فيتأبَّى هو فتصرَّ هي، وقد أسلمت قيادها

(١) انظر: روح المعاني للآلوسي، ج ٢٩ ص ١٧٢.

أصحاب هذه النفس لا يرتضون أمر الله، ولا يرضون بقضاء الله، ولا يأخذهم في الإثم والعدوان لو لم ولا نسب ولا أخوة، ولا يرقبون في الخير وأهله إلا ولا ذمة، وإنما يطيعون أنفسهم ويتبعون الشيطان لا يقدمون بين يديه وإن قدموا بين يدي الله ورسله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، تماماً كنفس قابيل الذي ما ارتضى أمر الله، ولم يرض بقضاء الله، أمرته نفسه الشيطانية الأماراة بالسوء بقتل أخيه هابيل: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

أما نفس هابيل فقد كانت من النفوس الأمانة بالخير .. اسمعوا إليه ماذا قال لأخيه قابيل حينما توعّده بالقتل، قال له : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِنَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾ .

ومع هذا الموقف الرفيع، والمراعاة الأخويّة الصالحة، والمقابلة الحكيمة بالتي هي أحسن!! مع كل ذلك؛ لم يتردّد صاحب النفس الشيطانية في اقرار هذا الإثم الكبير، والذنب العظيم في سبيل الطاغوت الذي لم يهدأ عن إغوائه وتضليله، فأصبح من بعد ذلك من الخاسرين ثم من النادمين، ولات ساعة النادمة وفات حين مندم .

(١) سورة المائدة : ٣٠ .

(٢) سورة المائدة: ٢٨-٢٩ .

الصفة الثانية

أَنَّهَا نَفْسٌ سَوَالَةٌ

والنفس الشيطانية تسوّل لصاحبها بالشُرور ، وتزّين في عينيه الفجور ، وتأخذ بيديه - وهو لا يشعر - إلى الجحود والإنكار والضلال والكفور .

والفرق بين النفس السوّالة والنفس الأُمارة بالسوء، أن النفس الأُمارة بالسوء تصرّ على الذنب والمعصية وإن علمت، فكأنها تأمر أصحابها بالسوء

تباشرهم بالأمر به، وهو قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) .

أما النفس السّوالة؛ فإنها تزيّن وتحسّن السوء والفحشاء ولا تبأشر
الطلب.

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ : سولت ، زينت وحسنت ^(٢) . وأصحابها يواقعون الإثم بالتأويل الفاسدة .

والقرآن الكريم أورد لنا ذكر ثلاث أنفس سوّالة :

الأولى : نفس السامريّ:

فقد سَوَّلَ له نفسه وزينت في عينيه وحسنت أن يضلَّ قوم موسى

(١) سورة النور: ٢١.

(۲) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ۸ ص ۳۶۳.

وهارون - عليها السلام - فيصنع لهم - بتدبير الشيطان - من زينة القوم عجلاً جسداً له خوار، ويقول لهم - بإيحاء الشيطان - : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى

فَنَسِيَ

و حين يسأله نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه المعصية العظيمة، والفتنة المضلة الجسيمة، والخطب المزيغ! يقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (١٦).

كل هذا الإضلال والإفساد في عقائد الناس وإدخال الزيغ في قلوبهم وقذف الريب في نفوسهم ووقوع الشرك بالله الواحد الديان؛ كان سببه التسويل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .

وماذا كان مصيره؟ .

أَحْطَهُ اللَّهُ مِنْ عُلُوِّ الْأَنْسِيَةِ إِلَى حَضِيضِ الْوَحْشِيَةِ، فَصَارَ كَالْوَحْشِ
يَعِيشُ مَعَهُمْ فِي الْغَابَاتِ وَالْجِبَالِ لَا يُقْرَبُ وَلَا يُمَسُّ مِنْذَ أَنْ قِيلَ لَهُ: ﴿فَاذْهَبْ
فَإِنَّكَ فِي الْحَيَوَةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ^ط وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ^ط، وَأَنْظِرْ إِلَى
إِلْهَيْكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لِنُحْرُقَتِهِ^ط، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا^ط﴾ (١٧) .^(٣)

(۱) سورة طه : ۸۸ .

(۲) سورة طه : ۹۶ .

(۳) سورة طه : ۹۷ .

الثانية : نفوس إخوة يوسف عليه السلام ^(١) :

وإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حملتهم الغيرة فملأت نفوسهم، ولوى الحسد تفكيرهم فخرّب قلوبهم، ومال الحقد بهم عن الحق والصواب فجنحوا فظلموا، فوجد الشيطان إلى نفوسهم مدخلاً وتمكن منها، فانقلبت نفوس أبناء

(١) ظن بعض الناس أن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كانوا أنبياء، وليس الأمر كذلك، بل الراجح عند المفسرين أنهم ليسوا بأنبياء، وذلك بحالهم مع يوسف وأبيهم مما اتفق عليه من عصمة الأنبياء منه، وقد وقعت منهم أنواع من الكبائر التي عصم الله أياءه منها، كالحسد الدنيوى وعقوق الأباء، وتعريض أخيهام للهلاك بالتأمر على قتله، ورضاء نفوسهم إبقائه في غيابة الحب، ولا يوجد دليل على أنهم كانوا أنبياء، وظاهر قوله تعالى ﴿فَوَلَّوْا أَمْكًا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَاسْتَعِذْ وَاسْتَعِذْ وَاسْتَعِذْ﴾ ليس نصاً في ذلك وإنما المعنى كما يقول ابن كثير: أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني اسرائيل، ولم يقم دليل على أعيانهم أنهم أوحى إليهم) فكان عاماً أريد به الخاص . ومن رجحوا أنهم ليسوا بأنبياء : القرطبي، وابن كثير والألوسي في تفاسيرهم وغيرهم، والشيخ الصابوني في النبوة والأنبياء .. وهو الصحيح .. راجع : تفسير القرطبي : ج ٩ ص ١٢٧ وتفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٦٩ - ٤٧٠، وروح المعاني للألوسي : ج ١ ص ٣٩٥ والنبوة والأنبياء ص .. ٢٦٢

هذا وإنهم قد تابوا واستغفر لهم أبوهم وعفا عنهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعلنوا لأبيهم عند موته تمسكهم بالإسلام والتوحيد كما قال تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَahَكَ وَإِلَahَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَahًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

أَلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴿١﴾ .

ولمّا كانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ ظهر لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم - وهو من بني بكر بن كنانة - يقول لهم : «إني مجيرٌ لكم من بني كنانة ومن كل عدو» ^(١) .

ولكن عدو الله الخوَار المتخاذل لما التقى الجمعان، وتراءت الفتان، الفئة المؤمنة والفئة الكافرة؛ فرأى أمارات النصر مع المسلمين بامداد الله لهم بالملائكة، وتيقن من هزيمة المشركين؛ انهزم وخار وجزع وخاف، وما لبث أن تخاذل، ورجع القهقري، ونكص على عقبيه، وولى مدبراً هو وشيعته من الشياطين، وهذا هو قول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ^(٢) .

وصدق الله العظيم الذي قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا

﴿٢٩﴾ (٤)

(١) سورة الأنفال من الآية : ٤٨ .

(٢) انظر : فتح القدير للشوكاني : ج ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣) سورة الأنفال : ٤٨ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٩ .

الموقف الثاني: تحاذله يوم القيامة:

وحين يبرز الجميع من قبورهم يوم القيامة يبعثون، ثم يقفون على المحشر وقد وُضع الكتاب، وعُرضت الأعمال، فهُرِعَ العابدون لغير الله، المشركون به الشيطان يستنصر خون بالملعون مستغثين به، ولكن هيهات هيهات!! هل يغيث الخذول المخذول؟ أم ينقذ الأذل الذليل؟! أم ينجي الهالك الهالك؟! فما وجدوه إلا وقد تخلَّى عنهم وتحاذل بهم، يقول لهم كما جاء في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) .

ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم، ويقطع قلوبهم، ويذهب نفوسهم حشرات، ويزيد خزيهم متخاذلاً عنهم موضحاً لهم: - أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة فاسدة لا تُنْفَقُ على عاقل، ولا تلبس إلا على مخذول..

- وأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ..

- وأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية عن أيسر

قال : لا والله .

قال : أنا صاحبك الذي جعلك تفعل وتفعل، أما اتقيت الله ! أما استحييت وأنت أعبد بني إسرائيل ! ثم لم يكفك صنيعتك حتى فضحت نفسك وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ؛ فإن متَّ على هذه الحالة لم يفلح أحدٌ من نظرائك بعدك .

فقال برصيصا : كيف أصنع ؟ .

قال : تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم وأخذ بأعينهم .
قال : وما ذاك ؟ .

قال : وما ذاك ؟ .

قال : تسجد لي سجدة واحدة .

فقال : أفعل . فسجد له من دون الله .

فقال الشيطان الرجيم عندئذ متخاذلاً عنه : يا برصيصا ! هذا أردت منك ، كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . « ^(١) .

فهل بعد هذا التخاذل من تحاذل؟ وقد أدّى به إلى سوء الخاتمة؟ يكفر بالله ويسجد للشيطان خاتماً بهذا السجود عمره؟!..

فصدق الله الذي قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿١﴾.

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج ١٨ ص ٣٧-٣٩.

(٢) سورة الفرقان ، ٢٩ .

الفصل الثالث

طرق معالجة النفس

الطريق الثالث

التنزه عن الفضول

وتمامه بالتّنزه عن فضول الشراب والطعام، وبالتّنزه عن فضول المنام، وبالتّنزه عن فضول الكلام، وبالتّنزه عن فضول مخالطة الأنام.

وعن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «أهلك من كان قبلكم بثلاث خصال: بفضول الكلام، وفضول الطعام، وفضول المنام»^(١). وزاد بعضهم: وفضول مخالطة الأنام.

١- أما التنزه عن فضول الشراب والطعام:

فهو الذي يليق بالمؤمن المستكمل لإيمانه، القائم بأركانهِ، المحافظ على عقله وجَنَانِهِ، وهو بحسبه لقيَمَات يقمن صلبه، إذ يأكل ويشرب ليتقوى بهما على الطاعة والعبادة، فنحن كما وصفنا الأثر: « لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع »^(٢).

فالمؤمن الموفق هو الذي لا يكثّر من الأكل، لأنه إن أكثر الأكل أكثر

(١) الاستعداد ليوم الميعاد لابن حجر العسقلاني، ص ٢٢-٢٣.

(٢) هذا الأثر وإن تكلم في سنده فمعناه صحيح ومطلوب، وقد قال الشيخ الألباني في السلسلة

الصحيحة ج ١٨ ص ٤٧: "لا أصل له".

الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه الفكر والعمل.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «البطنة تذهب الفطنة».

وقد كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة يقول لتلاميذه وأحبابه:

«معاشر المريرين ! لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً»^(١).

أما الكافر؛ فغايتة و مبتغاه أن يُذهب طيباته في الحياة الدنيا، فيأكل كثيراً ويشرب كثيراً، حتى استحق الكفار أن يصنفوا في قبيل الأنعام، وهم بها شبيهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْوَكُوا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوًى لَهُمْ﴾ (١٢) .^(٢)

٢- التنزه عن فضول المنام:

وأما التنزه عن فضول المنام؛ فهو من صفات المحبين المخبتين المتطلعين إلى رضوان الله، العاملين لما بعد الموت..

❦ فهذا عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا هَدَاةُ الْعَيُونِ قَامَ فَيَسْمَعُ لَهُ دَوِيَّ كَدَوِي النَّحْلِ حَتَّى يَصْبِحَ^(٣).

❁ وقال المغيرة بن حبيب: رمقت مالك بن دينار رحمه الله تواضاً بعد

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ص ٤٨

(٢) سورة محمد الآية ١٢.

(٣) أخرجه أحمد في كتاب الزهد ص ١٥٦.

النوم فاغفر لي»^(١).

وهذا صفوان بن سليم رَحِمَهُ اللهُ يَصْلِي فِي الشِّتَاءِ عَلَى السَّطْحِ، وَفِي الصَّيْفِ فِي الْبَيْتِ يَتَنَظَّرُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ، وَإِنَّهُ لَزِمَ رِجْلَاهُ حَتَّى يَسْقُطَ ^(٢).

وقال سفيان بن عيينه رَحِمَهُ اللهُ: «حلف صفوان رَحِمَهُ اللهُ ألا يضع جنبه على الأرض حتى يلقي الله، مكث على هذا ثلاثين عاماً فمات وإنه لجالس^(٣).
وقيل: إن جبهته ثقبت من كثرة السجود^(٤).

وهذه معاذة بنت عبد الله أم الصهباء العدوية رَحِمَهَا اللهُ كانت إذا جاء النهار تقول: « هذا يومي الذي أموت فيه»، فما تفطر حتى تمي، وإذا جاء الليل قالت: « هذه ليلتي التي أموت فيها»، فما تنام حتى تصبح، وإذا جاء الشتاء لبست الثياب الرقاق حتى يمنعها البرد من النوم، وكانت تصلي في كل يوم ليلة وستمائة ركعة وتقول: « عجت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور» ولم ترفع رأسها إلى السماء أربعين سنة رحمة الله تعالى عليها^(٥).

قلت: « لعلها فعلت ذلك!! استحياءً من الله مع كامل المخافة والاستعداد للقاءه رحمها الله تعالى ».

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(٢) أنظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، ١/ ١٣٤.

(٣) تذكرة الحفاظ، ١/ ١٣٤.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) صفوة الصفوة: ٢٢-٢٤، أعلام النساء: ٥/ ٦٠-٦١. وأحكام النساء: ص ٤٥٥.

الهُوى المردى، ويضبطها بالصبر والتوطين على إشار الخيرات دون الميل إلى الشهوات.

إن أرادت النفس شيئاً زجرتها.. وإن تاقَت إلى نوم أسهرتها.. وإن اشتاقت إلى لذة منعَّتها .. وإن اشتَهت شهياً حُلَّتَ بينه وبينها، وهذه هي المخالفة:

قال أبو حفص رَحِمَهُ اللهُ: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهاها في سائر أوقاته، كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها»^(١).

ومخالفة النفس تقوم على أمرين:

الأول: نهيها عما تهوى وتشتهي من المحرمات: وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا

مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴿٢٧﴾

قال بعض الحكماء: «إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه»

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «أفضل الأعمال مخالفة الهوى».

وقال أبو عمران الميرتلي رَحِمَهُ اللهُ (٣):

فخالف هواها و اعصها إن من يطع

(١) إغاثة اللهفان: ٦٩ / ١.

(٢) سورة النازعات: ٤٠-٤١.

(٣) أنظر: الأقوال في روح المعاني للألوسي: م ١٠ / ج ٣٠ / ص ٤٦.

❁ ومَرَّ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمًا فِي السُّوقِ فَرَأَى الْفَاكِهَةَ فَاشْتَهَاها فَقَالَ لَابْنِهِ: اشْتَرِ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْفَاكِهَةِ الْمَقْطُوعَةَ الْمَمْنُوعَةَ لَعَلَّنَا نَذْهَبُ إِلَى الْفَاكِهَةِ الَّتِي لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ. فَلَمَّا اشْتَرَاهَا وَآتَى بِهَا إِلَيْهِ قَالَ لِنَفْسِهِ: «قَدْ خَدَعْتَنِي حَتَّى نَظَرْتُ وَاشْتَهَيْتُ، وَغَلَبْتَنِي حَتَّى اشْتَرَيْتُ، وَاللَّهِ لَا ذَقْتِيهِ» فَبَعَثَ بِهَا إِلَى يَتَامَى مِنَ الْفُقَرَاءِ.

❦ وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «اشتهد نفسي لبناً منذ أربعين سنة، فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى».

❁ وقال حماد بن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: «أتيت داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ والباب مغلق عليه ، فسمعتة يقول: « نفسي ! اشتهيت جَزْراً فَأَطَعْتُكَ جزراً، ثم اشتهيت تمرّاً فَأَلَيْتَ أَنْ لَا تَأْكُلِيهِ أَبَداً »^(١).

رجالٌ والله جاهدوا أنفسهم فغلبوها وقهروها وملكوها وتمكّنوا منها، فساروا بها ممسكين بناصيتها إلى الآخرة بسلام، ولسان حالهم يقول للخلف ناصحاً:

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محصناك النصح فاتهم

(١) راجع هذه المواقف في إحياء علوم الدين ٣/ ٨٥-١٢٤، وصفة الصفوة لابن الجوزي، ففيهما من الأخبار ما يشجذ الهمم للتطلع إلى المعاني وطلب الآخرة. أخرجه أحمد في كتاب الزهد: ص ١١٩.

ألهته حياته، وشغلته أهواؤه؛ عاد أمره إلى الندامة والخسارة»^(١).

أنواع محاسبة النفس:

لَمَّا كَانَ مَقْصُودُ الْمَحَاسِبَةِ لِلنَّفْسِ هُوَ تَنْزِيهِ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ وَتَنْقِيَّتِهَا مِنْ شَوَائِبِ الشَّرْكِ وَالرِّيَاءِ، وَتَخْلِيصِهَا مِنْ مِثَالِبِ التَّقْصِيرِ وَالتَّفْرِيطِ، وَتَحْصِينِهَا مِنَ التَّعَدَّى عَلَى حُدُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!! تَعَلَّقْتُ مُحَاسِبَةُ النَّفْسِ بِالْعَمَلِ، وَارْتَبَطْتُ بِهِ.

لذلك؛ تنوعت المحاسبة بحسب حال المؤمن وعمله، فتكون تارة قبل العمل، ويحتاج تارة للمحاسبة أثناء إيقاع العمل، ويحاسبها تارة أخرى بعد وقوع العمل، وهكذا..

فأنواع محاسبة النفس ثلاثة:

أولها: محاسبة النفس قبل العمل.

الثاني: محاسبتها أثناء العمل.

والثالث: محاسبتها بعد العمل.

ونحاول بيان هذه الأنواع بتوفيق الله تعالى:

أولاً: محاسبة النفس قبل العمل:

ومحاسبة النفس قبل العمل: تكون بالنظر إلى ما ظهر له، وتحرك بفعله

(١) انظر: إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٩٣، وإغاثة اللهفان: ١/ ٦٤.

خاطرُه أهو لله خاصة ، أو هو لهوى النفس ومتابعة؟! فيتوقف فيه، ويثبت، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، مراده ووجهته، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفَّ عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه، وهَمَّ به، وميله إليه.

فالذي يحاسب نفسه قبل العمل يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يعلم أنه لله، وأنه ليس لنفسه فيه حظ، ولا هواه فيه مدخل، ولا للشيطان به اتباع.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: « رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر »^(١).

وهذا هو وصية الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «أتق الله عند همّك إذا هممت» ^(٢).

ومن قَبْلَ سلمان معلّم سلمان والبشرية الحبيب المصطفى والنبي المجتبى
محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. جاءت وصيته الشريفة لأُمته تَوَكَّدَ هذا المطلب لَمَّا
قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر! فليقل خيراً أو
ليصمت) (٣).

(١) الإغاةة: ١/٦٦، والإحياة: ٤/٤٩٧.

(٢) قال العراقي في المغني عن حمل الافار بها مش الاحياء ٤ / ٤٩٧: أخرجه أحمد والحاكم وصححه.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان/ باب "الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير" وبلفظ: فليقل خيراً أو ليسكت" أخرجه البخاري في الأدب، وابن ماجه في كتاب الفتن.

ومعناه كما يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ! فَإِنْ كَانَ مَا يَتَكَلَّمَ بِهِ خَيْرًا مُحَقَّقًا يَثَابُ عَلَيْهِ؛ وَاجِبًا أَوْ مَدُوبًا؛ فَلْيَتَكَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ يَثَابُ عَلَيْهِ فَلْيُمْسِكْ عَنِ الْكَلَامِ سِوَاءَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَكْرُوهٌ أَوْ مَبَاحٌ مُسْتَوَى الْطَرَفَيْنِ» اهـ^(١)

وقد أخذ الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ معنى هذا الحديث فقال: « إذا أراد أحدكم أن يتكلم فليفكر، فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر له فيه ضرر أو شك فيه أمسك » اهـ^(٢)

وهذا التوقف عند أول الهمّ صفةُ المؤمن المراقب لربه، الساعي إلى رضاه، فتحتّم عليه ولزمه..

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: « هذا التوقيف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه » (٣).

فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد الثبت، ولا يتقدّم أو يتأخّر إلا بعد التملّي والتأمّل والتفكّر.

قال محمد بن علي رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَقَّافٌ مَتَأَنٌّ يَقِفُ عِنْدَ هَمِّهِ، لَيْسَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ»^(٤).

(١) شرح النووي لصحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٠٩.

(۲) المصدر نفسه.

(٣) الإحياء: ٤/ ٤٩٧.

(٤) الاحياء نفسه: ٤/٤٩٨.

وقد قيل: هذه الآية جمعت نوعين من المحاسبة: المحاسبة قبل العمل، والمحاسبة بعد العمل، وأن التقوى الأولى هي التوبة فيما مضى من الذنوب، والتقوى الثانية هي اتقاء المعاصي في المستقبل.^(١)

قال بعض الحكماء: « إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى! فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة؛ فإن مُكث الندامة في القلب أكثر من مُكث خفة الشهوة »^(٢).

وقال لقمان الحكيم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « إن المؤمن إذا أبصر - العاقبة أمِن -
الندامة» (٣).

ولذلك كان الفاروق عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحاسب نفسه قبل العمل في كل يوم حذراً مما ستجنيه عليه نفسه، واحترازاً من أخطائها وخطيئاتها في المستقبل.

قال أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « سمعت عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول - و بيني وبينه جدار - وهو في الحائط: « عمر بن الخطاب! أمير المؤمنين! بَخِ بَخِ ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك ».

(١) راجع: تفسير القرطبي ١٨ / ٤١٠.

(٢) الإحياء: ٤/ ٤٩٢.

(۳) المصدر نفسه.

وعيالک فأطعتک ورجعت؟! والله لأعرّضنک الیوم علی الله أخذک أو ترکک.» ..

فقلت: لأرمقنه اليوم. فرمقته، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا، فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيتَه صريعاً، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنه"^(١).

رحمه الله وتقبّله في الشهداء الصالحين.

هكذا يكون الرجال، وهكذا تكون المحاسبة، أن يلزم نفسه على الطاعة
إثر المحاسبة، وهو من أبين علامات صدق المحاسبة.

هذه هي مراتب المحاسبة قبل العمل.. وإليك مقاماتها:

مقامات المحاسبة قبل العمل:

ومحاسبة النفس قبل العمل تتم بثلاث مقامات^(٢) يحتاج المؤمن الى محاسبة نفسه عليها قبل العمل:

المقامة الأولى: أنه إذا همّ بعمل وتحركت له نفسه؛ وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدورٌ له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدوراً له لم

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي: ج ٤ ص ٤٢١. والإحياء: ٤/ ٥٠٦.

(٢) نقلها ابن القيم عن بعض العلماء في اغاثة اللهفان: ١/٦٦، فارجع إليها إن شئت. وقد جعلها أربعاً، ورأيت أنها في الحقيقة ثلاث فقط.

ولتصحيحه وتحليصه من كل متعلق غير طلب وجه الله تعالى العلي الكبير،
ولتصويب سائر عمله على وفق ما شرع الله ومراده.. وهكذا.

وحقيقة هذه المحاسبة في التنبّه لما يوقعه من عمل، أهو طاعة أم معصية !!
فيسارع في إيفاء كل منهما مما يجب وينبغي، فتكون لمحاسبة النفس أثناء العمل
حالتان:

الحالة الأولى: تفقد كيفية العمل إن كان طاعة:

فيراقد الله ﷻ في طاعته ليقضي حق الله فيه، بالإخلاص، والإكمال
بمراعاة الأدب فيها، وحراستها عن الآفات والمفسدات بل والمنقصات.

* فيجدّد نيّته خلال العمل في أوله ووسطه و آخره، لتبقى الطاعة لله وتمضي إلى الله، إذ الشيطان يعكّر صفو نيّته فيشوبها تارة بتحقيق الرياء فيه، وتارة بالتشكيك فيه.

ويحسن فعل الطاعة ويكمل صورتها، فيتعاطاها على أكمل ما يمكنه من استيفاء شروطها ونفي موانعها.

ويراعي الأدب مع الله في أدائها، باستكمال الأحبِّ إلى الله، والأرضي
له، كمن يتلو القرآن فينتبه أنه جالس إلى غير القبلة فيستقبل القبلة، وكمن
يذكر الله فيلاحظ إلى أنه على درجة من الغفلة فينتبه، وكمن يسبح ربه
فيستحضر عظمتَه فيشعر بفقره إليه جَلَّ جَلَالُهُ وينكسر، وكمن يصلي ويسلم على

لقصد صحيح وغرض شرعي كالشهادة والمداواة وإرادة خطبتها، أو المعاملة بالبيع و الشراء وغير ذلك من الحاجات الشرعية بقدر هذه الحاجات^(١).

وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَحَفْظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ۚ ﴿٣١﴾

ومعناه: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم عن الأجنبية إذا أحسوا في أنفسهم ريبة أو قصد شهوة، وإن كان أحدهم منفرداً مطمئناً أن أحداً لا يراه فلا ينسى أن الله لا تغيب عليه شيء، وأنه مطلع على كل خائنة أعين وما تخفي الصدور، فيراعي سرّه بملاحظة الغيب مع كل لحظة من نظرة ولفظة كلمة، وقد أحسن من نصح فأنشد:

إِذَا مَا خَلُوتِ الدَّهْرُ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ

خلوتُ، ولكن قل عليّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ

هذه هي حالات المحاسبة للنفس أثناء العمل وبقي النوع الثالث من

(١) راجع: شرح النووي لصحيح مسلم: ج ١٤ ص ٣٦٤.

(٢) سورة النور، ٣٠-٣١.

المرتبة الأولى: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغب نفسه في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن تذكر فيها نقصاً كلفها بالجبران والإصلاح.

المرتبة الثانية: أن يحاسبها ثانياً على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب إثماً أو اقترف معصية؛ اشتغل بعقوبتها، وسعى في تداركها بالندم والتوبة والاستغفار، مع الاستكثار من الحسنات الماحية، وقد أوصى بذلك النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحديث المشهور معاذ بن جبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)^(١).

وبذلك كان ينصح أبو عبيده بن الجراح - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إخوانه يقول لهم: «ألا بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم أخطأ ما بينه وبين السماء والأرض ثم عمل حسنة؛ تعلّت فوق سيئاته حتى تقهرهن» (٢).

وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفَا إِنَّ اللَّيْلَ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم ١٩٨٧ عن أبي ذر وعن معاذ رضي الله عنها ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٦٦٠ عن معاذ رضي الله عنه، والبزار في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه برقم ٤٠٢٢ والحاكم في المستدرک برقم ١٧٨ عن أبي ذر كذلك، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي الحاكم على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أحمد في كتاب الزهد: ص ١٨٤.

ولا تكون صائبة صحيحة إلا بمتابعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٣- النصيحة لله جَلَّ جَلَالُهُ فيه: وذلك بمحاسبتها: هل التزمت بهذه الطاعة

ودعت إليها ترغيباً وترهيباً، وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر؟

٤- شهود مشهد الإحسان فيه: فيسألها هل عَبَدْتُ الله كأنها تراه إذ

الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١).

٥- شهود مِنة الله عليه: وذلك بالاعتراف أنّ أداء هذا العمل أو هذه

الطاعة إنما كان بتوفيق الله ومَنه وكرمه وفضله.

٦- شهود تقصيره فيه: فيعترف أنه مقصر في أدائه فيحاسب نفسه: هل

وفي هذه المحتوق؟ وهل أتي بها في هذه الطاعة أم لا؟.

المرتبة الرابعة:

أَنْ يَحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ مَا صَدَرَ عَنْ جَوَارِحِهِ. فَيَحَاسِبُهَا بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ فَاهُ،

ومشت إليه رجلاه، وما بطشت يداه، أو سمعته أذناه، فيسأل نفسه فيها ثلاثة

سؤالات: ماذا أردت بهذا ؟ ..ولمن فعلته ؟ ..وعلى أي وجه أديته؟ .

المرتبة الخامسة:

أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه أَوْلى من فعله. كالذي يتخوَّض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه/ كتاب الإيمان/ باب: بيان الإيمان والإسلام و الإحسان من حديث عبد الله بن عمر رضي

الله عنهما وحكم عليه السيوطي بالتواتر: انظر: قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة للسيوطي ص ٤٣ بتحقيق

الشيخ خليل الميس.

طلبها تكالب المدهوش المستهتر.. ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها
إعراض المغرور المستحق! ما هذا من علامات الإيمان !!!..

ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا ميتً
انفلتت وتخلصت؛ هيهات هيهات!!..

ويحك يا نفس ! لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور» .

✽ يعاتبها ويلومها إذا أحس فيها طول أمل وحرصاً فيقول لها مثلاً:

«ويحك يا نفس ! مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها، وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ ؟ ..

أما تعلمين يا نفس! أن الموت موعدك، والموت يأتي بغتة والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفرع الأكبر بين يديك ؟ ».

وهكذا؛ كلما رأى من نفسه تقصيراً في طاعة، أو تفريطاً عن واجب أو محبوب لله ؛ سارع بعتابها ولومها، وشدد عليها التوبيخ والعزل حتى يدخل بها في زمرة عباد الله الراضية المرضية.

هذا هو الطريق الأول لمحااسبة النفس بعد العمل..

الطريق الثاني: التأديب والمعاقبة:

وهو طريق الذين أحبّوا النجاة لأنفسهم، فبحثوا عن سلامتها ، فما

البارد أيام الدنيا قلت : أنغص عليها الحياة»^(١).

❁ وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل، فكان يضع إصبعه

عليه ويقول: « حس يا حنيف! ما حملك على ما صنعت يوم كذا وكذا »^(٢١).

❁ وقال مالك بن ضيغم رَحِمَهُ اللهُ: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي

رَحِمَهُمَا اللَّهُ بعد العصر. فقلنا : إنه نائم . فقال : أنوم هذه الساعة؟ هذا وقت

نوم؟ ثم وليّ منصرفاً، فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك ! فأبطأ علينا

الرسول ثم جاء وقد غربت الشمس، فقلنا له: أبطأت جداً، فهل قلت له؟

قال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب

نفسه ويقول: «أقلتِ أنوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى

شاء ! وقلت: «هذا قـت نوم؟» وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم؟ تسألين عما

لا يعينك؟ وتكلمين بما لا يعينك؟ أما إن الله على عهداً لا أنقضه أبداً! لا

أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سوءة لك سوءة

لک، اَما تستحین! کم تو بخین وعن غیِّک لا تتنهین؟ قال: « وجعل بیکی وهو

لا يشعر بمكانى، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته» (۳).

هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة يعاقبون أنفسهم على اقتراف

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص ٥٥ برقم ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد في كتاب الزهد: ص ٢٣٥.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس برقم ٥٤ ص ٥٧، وانظر: الإحياء: ٤/ ٥٠٥.

رقم الإيداع: ٧٤٠ / ٢٠١٥ م